

من تاريخ الطب عند العرب:

الطبيبان:

"ابن رضوان" و "ابن بطلان"

د. شاكر مطلق

نتعرف

شخصية الطبيب المصري "ابن رضوان" - أبو الحسن علي - والطبيب البغدادي "ابن بطلان" - أبو الحسن المختار - من خلال ما وصل إلينا عنهما من كتابات الطبيب المعروف "ابن أبي أصيبعة" - موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي - صاحب المؤلف الشهير "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وهو من مواليد دمشق عام 600/هـ. وكان والده من أمهر الكحالين فيها. تلقى علوم الطب عن والده في شتى أمراض العيون، ثم سافر إلى القاهرة والتحق بالمارستان الناصري الذي أنشأه "الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي"، ثم عاد إلى بلاد الشام تلبية لدعوة من "عز الدين" وهو في صرخد - وعز الدين هو الطبيب السويدي - نسبة إلى السويداء في جبل العرب - الذي عمل في دمشق عند الملك المعظم ابن الملك العادل صلاح الدين الأيوبي في أربعة أماكن: البيمارستان النوري الكبير، بيمارستان باب البريد، قلعة دمشق، وفي المدرسة الدخوارية التي درس فيها - ومكث فيها حتى وفاته في عام 668/هـ. وتنسب إلى مذهب الدين محمد بن عبد الرحمن.

ألف موسوعته هذه التي احتوت على ما يزيد على أربعمئة ترجمة لكبار الأطباء من إغريق ورومان وهنود وعرب ومسلمين وسريان وغير عرب وغير نصاري، ومن ظهر في بلاد المشرق والمغرب.. وكان قد ألفه لأمين الدولة، وزير الملك الصالح، وقام المستشرق الألماني مولر "Mueller" بنشره عام 1884م - 1299هـ. نقلًا عن نسختين خطيتين عثر عليهما في مصر، وقد صدر هذا الكتاب، لأول مرة، في مصر بطبعة حجرية عن المطبعة الوهبية (نقله عن النسخ الموجودة في بعض خزائن الكتب وصححه العبد الفقير إلى عون الله ورحمته امرؤ القيس بن الطحان)، ويقع في جزأين،

ويوجد في مكتبتي الخاصة الجزء الثاني فقط من هذه الطبعة الأولى الحجرية ويقع في نحو 421 صفحة من القطع الكبير 24×16 سم.

لا يتحدث "ابن أبي أصيبعة" في موسوعته (طبقات الأطباء) عن "أبي رضوان" مباشرة، وإنما من خلال حديثه عن الطبيب الآخر "ابن بطلان" -أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان المعروف أيضاً باسم "بوانيس" -يوحنا- وهو نصراني من أهل بغداد، تتلمذ على أبي الفرج عبد الله بن الطبيب، ولازم أيضاً الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون، الطبيب الحراني. كان ابن بطلان معاصراً لابن رضوان -كبير أطباء مصر في زمن المستنصر بالله- لا الحاكم بأمر الله- وكانت بينهما مراسلات ومناظرات وشعر متبادل طريف.... الخ نشره المستشرق الألماني (ماكس مايرهوف) في رسائل خمس (بالإنكليزية) عام 1937م يتطرق فيها "ابن بطلان" بأسلوب دعابي، إلى سواد بشرة "ابن رضوان" وقبح وجهه ويلقبه "بتمساح الجن" ويقول فيه:

فَمَا تَبْدَى لِلْقَوَائِلِ وَجْهَهُ
وَقُلْنَ وَأَخْفَيْنِ الْكَلَامَ تَسْتُرًا
نَكْصُنَ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ مِنَ النَّدَمِ
أَلَا لِيَتَنَاكُثَا تَرْكِنَاهُ فِي الرَّحِيمِ

وسافر "ابن بطلان" إلى مصر والنقي "غريمه" "ابن رضوان" هناك، ثم سافر إلى أنطاكية والقسطنطينية، وكان "ابن بطلان" أعذب ألقاظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به، ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته (دعوة الأطباء): "وكان ابن رضوان أطبّ وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها" -أهـ.

دخل "ابن بطلان" الفسطاط -إمبابة الآن- وهي أول مدن المسلمين في مصر بناها عمرو بن العاص سنة 639م. بين القاهرة ومصر العتيقة -، وأقام فيها ثلاث سنين إبان دولة "المستنصر" بالله - 420-487هـ/1029-1094م. الخليفة الفاطمي الثامن الذي حكم ثمانية وخمسين عاماً.

ومن أطرف مايرويه لنا "ابن أبي أصيبعة" عن "ابن بطلان" ماتحدث به من سنة 446هـ. (فإن في تلك السنة دفن في كنيسة "لوقا" - بعد أن امتلأت جميع المدافن في القسطنطينية - أربعة عشر ألف نسمة في الخريف. فلما توسط الصيف في سنة سبع وأربعين لم يصرف النذل، فمات في "الفسطاط" والشام أكثر أهلها، وجميع الغرباء، إلا من شاء الله. وانتقل الوباء إلى العراق فأتى على أكثر أهله، واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية، واتصل ذلك بها إلى سنة 454هـ.، وعرض للناس في أكثر البلاد قروح سوداوية وأورام للطحال...) أهـ. ولعله يتحدث عن الطاعون القاتل.

ويعزو "ابن بطلان" هذا الوباء إلى إنذار "بطليموس" القائل (الويل لأهل مصر إذا طلع أحد ذوات الذوائب، وانجهم -أي أصبح كالح الوجه -في الجوزاء) ويؤكد صحة مقولة "بطليموس" -النبؤيّة- حول هذا الموضوع حين قال: (إن زحل والمريخ متى اقتترنا في السرطان زلزل العالم).

ونقل "ابن أبي أصيبعة" من خط "ابن بطلان" مذكره عن الأوباء العظيمة وفقدان العلماء في

ألف "ابن بطلان" العديد من الكتب العلمية والكنسية وعدداً من الرسائل في تدبير الأمراض (التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج والقوة والاسترخاء وغيرها، ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء في الكنائش والأقرباذينات وتدرجهم في ذلك بالعراق وما والاها على استقبال سنة سبع وسبعين وثلاثمائة (377هـ) -إلى سنة خمس وخمسين وأربعمئة (455هـ...) -أهـ.

-هناك لبس في التواريخ، كما أظن، ورد عند (ابن أبي أصيبعة). فهو يورد في "عيون الأنبياء...." عن "ابن بطلان" ويخط يده مايلي:

وهذا التاريخ الهجري ينطبق على كل المعطيات وماذكره "ابن بطلان"، عن زمن الوباء وعلاقته بـ "ابن رضوان" ولكن اللبس هذا، يمسُّ التاريخ الميلادي فقط لا الهجري، ويظل قائماً سواء بالنسبة إلى التاريخ (الجولياني القديم المعمول به حتى القرن الخامس الميلادي- أو بالنسبة إلى التاريخ (الغريغوري) الحديث. ولعل هذا الخطأ حصل في أثناء النسخ، وينتفي بالمقارنة (بالتأريخ الاسكندراني).

والآن وبعد أن تحدثنا عن "ابن بطلان" صديق "ابن رضوان" -بلغة العصر- وعن بعض ما

أعلمنا به "ابن أبي أصيبعة" في موسوعته المذكورة أعلاه، عن كتاباته وطرائفه مع "زميله"، ننقل إلى الحديث قليلاً عن جانب من اهتمامات "ابن رضوان" الطبية وآرائه في تصنيف الأمراض وصفات الطبيب الحق.

الطبيب "ابن رضوان" - (376-460هـ/986-1067م).

يتحدث الطبيب "ابن رضوان" في كتابه (مقالة في شرف الطب)، عن الأمراض وأنواعها:
 أولاً : المرض القابل للشفاء، وفيه يقوم الطبيب وعلمه وبراعته بالدور الأكبر.
 ثانياً : المرض القاتل و يتوجب فيه على الطبيب أن يجيد التشخيص ويعطي الإنذار الصحيح، وربما استطاع الطبيب، عن طريق المداواة، إطالة عمر المريض.
 ثالثاً : المرض الذي له في نظام الغذاء المناسب دور هام.
 رابعاً : الداء الذي يتطلب العلاج فيه استعمال الأدوية اللطيفة. وقال القدماء إن أكثر الأدوية نفعاً هي المتوافرة والرخيصة.
 ونذكر هنا بمقولة الرازي العظيم (854-932م): (مايستطاع معالجته بالغذاء لايعالج بالدواء، ومايمكن علاجه بالدواء لايعالج بالجراحة).
 وكذلك بمقولة الشيخ الرئيس (ابن سينا) -980-1037م -عن عدم جواز العلاج بالأدوية المركبة حيثما يمكن العلاج بالأدوية البسيطة، وهو أمر متفق عليه بين أطباء ذلك الزمان.
 وقالوا أيضاً: (وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية لم يحاول دفعه بالأدوية). وقالوا: (ولاينبغي للطبيب أن يولع بسقي الأدوية فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داءً يحلله... تشبث بالصحة وعبث بها)

الطب النبوي

وإذا أصاب المريض الضرر توجبّت المسؤولية. وفي الحديث الشريف (من تطب ولم يعلم منه طب فهو ضامن) وكذلك الطبيب المرخص المأذون له، يكون ضامناً في حالة وقوعه بخطأ (فني) - كما نقول اليوم-. وهناك شروط للضمانة قد تؤدي إلى إعفائه في حالات خاصة أو إلى تحمّل بيت مال المسلمين للضمان أو أن يدفع من ماله الخاص إن كان من أهل الذمة...
 فالطبيب مطالب بأن يكون عالماً بالمرض والمريض الذي يدوايه وبأحواله وعاداته أي بقصته المرضية) ليشخص داءه بدقة ويعطيه العلاج الصحيح اللازم.
 ويقول الطبيب أبو الطيب الطبري (959-1058م).
 (ولاينبغي لأحد أن يعجل بالعلاج. ولا يقوم عليه إلا بعد التجربة ومعرفة الأدوية، لأن الدواء

*** التراث العربي ***

يصير في يد الجاهل كالسُم الزعاف.. وربما كان السم بحكمة الحكيم وحسن تقديره مثل ماء الحياة... -فردوس الحكمة في الطب ص558-560. اهـ.

وفي هذا السياق نجد الطبيب الفقيه الحنبلي "ابن قَيِّم الجوزية" صاحب "الطب النبوي" يضع عشرين شرطاً ليكون الطبيب طبيباً حاذقاً ومنها (الشرط الثاني عشر):
(النظر في قوة الدواء ودرجته والموازنة بينها وبين قوة المريض).

ويقول أيضاً: (الرابع عشر):

على الطبيب (أن يعالج بالأسهل فالأسهل.... فمن سعادة الطبيب، علاجه بالأغذية بدل الأدوية وبالأدوية البسيطة بدل المركبة).

وفي الشرط الخامس عشر يقول للطبيب:

(أن ينظر في العلة -هل هي مايمكن علاجه أو لا؟ فإن لم يمكن علاجها حفظَ صناعتَه وحرمتَه، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئاً. وإن أمكن علاجها نظر: هل يمكن زوالها أو لا؟...)

ويحتّم "ابن قَيِّم الجوزية" شروطه بالشروط العشرين قائلاً:

(.... أن يجعل علاجه وتدبيره دائماً على ستة أركان: حفظ الصحة الموجودة وردّ الصحة المفقودة بحسب الإمكان، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان واحتمال أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج.

وكل طبيب لا تكون هذه أخيته التي يرجع إليها فليس بطبيب....

ولما كان للمرض أربعة أحوال:

ابتداء وصعود وانتهاء وانحطاط، تعيّن على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرضى بما يناسبها ويليق بها، ويستعمل في كل حال مايجب استعماله فيها.

-الطب النبوي-

ولقد فهم بعض كبار الأطباء القدامى، في أماكن مختلفة من العالم القديم الطب وقايةً وحفظاً للصحة. فالأطباء في الصين، مثلاً، كانوا يتقاضون أجورهم ما دام الشخص الذي يشرفون على صحته معافى من المرض، ويتوقف هذا الأجر في حالة مرض الشخص. وهذا مانجده أيضاً -على سبيل المثال- عند "محمد بن زكريا الرازي" حيث يقول: (الطب حفظ الصحة وحرمة العلة...).

كما نجده فيما رواه "عبد الله بن جبرائيل" من آل بخت -يشوع (بختيشوع) عبد يسوع - (460هـ-106م)، ويعطي "الزركلي" في (الأعلام ج4) تاريخاً آخر هو (453هـ) -عاصر ابن بطلان وصادقه- خبراً طريفاً يحدثنا فيه عن ذهاب الطبيب المعروف "أبو الحسن الجرّاني" -وكان

شيخاً مسناً، برفقة الطبيب ثابت بن سنان وكان أصغر منه سنّاً- للقاء "عضد الدولة" -من ملوك الدّيلم في القرن العاشر- عند دخوله بغداد، حيث سأل هذا:

(من هؤلاء؟ قالوا: الأطباء، قال: نحن في عافية ومابنا حاجة إليهم... فقال (سنان): أطل الله بقاء مولانا الملك، موضوع صناعتنا حفظ الصحة، لا مداواة الأمراض والملك أحوج الناس إليه. فقال (عضد الدولة) صدقت.

وقرر لهما الجاري السني وصارا ينوبان مع أطبائهم (اه. عيون الأنباء ص308-).

وقد اهتم "ابن رضوان" كثيراً بالناحية الأدبية -المسلكية لمهنة الطب -وهو ما يعرف اليوم باسم (آداب المهنة) - فخصها بدراسات ومؤلفات عديدة نجد فيها مرجعية استوعبت الموروث الإغريقي (أبقراط) وأضافت إليها إسهامات هامة. وأهم ماورد عنده في صفات الطبيب الفاضل:

1- أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء وحسن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلاً ذكوراً، خيّر الطبع.

2- أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثياب.

3- أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبيح بشيء من أمراضهم.

4- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

5- أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

6- أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعداء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

7- أن يكون مأموناً، ثقة على الأرواح والأموال، ولا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه (عيون الأنباء...).

ثم قال: (المعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه هذه الخصال بعد استكمالها صناعة الطب والمتعلم هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خيّر، ونفس زكية وأن يكون حريصاً على التعليم، ذكياً ذكوراً لما قد تعلمه).

وقال أيضاً: (البدن السليم من العيوب هو البدن الصحيح الذي كل واحد من أعضائه باق على فضيلته، أعني أن يكون يفعل فعله الخاص على ما ينبغي).

وكان "ابن رضوان" منسجماً في حياته وعمله مع هذه القوانين الأخلاقية التي يطالب الطبيب بأن يتميز بها ويطبّقها، وكتب في (شرف الطب وأدب الطبيب) وهو يعلمنا في سيرته بكيفية تعلمه الطب وفي ذلك يقول:

(إنه لما كان ينبغي لكل إنسان أن يتخير ألبق الصنائع وأوفقها له، وكانت صناعة الطب تتأخّر الفلسفة -طاعة الله عز وجل، وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعتي الطب (!)،

(شمس اللہ فوق الغرب) فتأمل!

أهم المراجع الأجنبية (الألمانية خاصة):

- ## أهم المراجع العربية:

-